حديقة الأزهار
في ماهية العُشب والعَقّار

ابو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغساني
الشهير بالوزير

حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه
محمد العربي الخطابي

دار الغرب الاسلامي

حديقة الأزهار
في ماهية العُشب والعَقّار

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
1405 هـ - 1985 م
الطبعة الثانية
1410 هـ - 1990

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطّبعة الثانية

أحمدك اللهمّ حمدًا كثيرًا وأصلّي على نبيّك ومصطفاك.

أما بعد، فقد لَقِي كتاب «حديقة الأزهار» قبولاً حسنًا لدى المهتمين بالتراث العلمي العربي الإسلامي، ونَفِدَت الطبعةُ الأولى في زمانٍ يسير ممّا أوجب إعادة طبعه بعد تصويب ما وقع فيه من تصحيف قليل.

وبمرور الزمن تأكّد عندي أن الغسّاني، مؤلّف «حديقة الأزهار» قد اعتمد في وصف النبات وتَجنيسه اعتمادًا يكاد يكون كلّيًّا على ابن عبدون مؤلف كتاب «عمدة الطبيب في مَعْرفة النّبات»، إلا أن الغسّاني آثر الاختصار واقتصر على ذكر نحو 380 مادة نباتية، بينما أفاض ابن عبدون في الوصف والبيان، كما بلغ عدد أسماء النبات التي ذكرها بمختلف اللغات نحو 4700.

وقد شرعت منذ مدة في تحقيق كتاب «عمدة الطبيب» وسيصدر قريبًا – بحول الله – في مجلّدين ضمنَ مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، وقد صدرته بمدخل أبين فيه تطوّر دراسة النّبات في التراث العلمي العربي الإسلامي، ولا سيّما في الأندلس وبلاد المغرب.

ومن الله أستمدّ العون وإياه أسأل التوفيق وستر العيوب والنقائص التي لا يَخلو منها عمل إنساني.

الرباط 11 ذي القعدة 1409

16 يونيو 1989

محمّد العربي الخطابي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحَمد لله الذي بنعمتِه تتِمّ الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آلِه وصحابتِه أجمعين .

أما بعد ، فهذا الكتابُ الذي وفّقني الله إلى تحقيقِه هو من ذخائر التّراث العِلمي الإسلامي المخطوط ، وضَعه طبيب مغربي نَهَج في تأليفِه منهجاً علمياً سليماً ، وأحسن الإستفادة من أوثق المصادر العربية في علميْ النَّبات والطبّ فجاء كتابه جامعاً بين الضبط والإيجاز والوضوح وحسن الترتيب ، وقد بذل المؤلّف جهداً مشكوراً في سبيل التمييز بين أعيان الأعشاب معوِّلاً على المعاينة والمشاهدة كُلّما أمكنه ذلك .

مؤلّف الكتاب :

هو أبو القاسم بن محمد الأندلسي الغساني الشهير بالوزير ، هكذا وجدنا اسمه بخطّ يده في آخر مخطوطةِ كتابِ « الوصول لحفظِ الصحة في الفصول » لمحمد بن الخطيب السلماني الذي نسخه الغسَّاني عام 978 هـ ، وهو محفوظ بالخزانة الحسنية في الرباط (رقم 590/ طب) . أما النسخ الخطية من تآليفه التي اعتمدنا عليها في التحقيق فقد كُتِب اسمه فيها : قاسم بن محمد بن إبراهيم الغسَّاني الشهير بالوزير ، وهو لقبٌ لأُسرته[1] .

وُلِدَ المؤلفُ عامَ خمسٍ وخمسين وتِسعمائة ـ كما ذكر أبو العبّاس أحمدُ المَقرّي في « روضة الآس » أخبره بذلك صاحبُ الترجمة نفسُه ـ[2] وتلقّى العلمَ في فاس على علماءَ منهم والدُه محمّد ، أخذ عنه الطبّ ، وهذا ما يؤكّده أبو القاسم

---

(1) جاء في روضة الآس لأبي العباس أحمد المَقّرِي ، ص 217 أن الغساني الوزير ، هو أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني ، وكذلك في « درة الحجال » ، 3 : 289 بإضافة اسم جَده ابرهيم ، وفي بروكلمان (الذيل 2 : 714) : أبو محمد القاسم بن ابرهيم الغساني بإضافة الكنية التي لم ترد في أي من المخطوطات . (انظر أيضاً الأعلام 5 : 182) .

(2) المرجع السابق ، ص 222 ، وفي « دُرَّة الحجال » لأحمد بن القاضي المكناسي ، ص 3 : 289 أن الغساني ولد حوالي عام 960 هـ ، وقد رجّحنا قول المقّري الذي لقيّ صاحب الترجمة في فاس وأخذ عنه .

الغسَّاني في ثنايا كِتاب « حديقة الأزهار » حيث يَنْقُل في بعض الأحيان ما حَدَّثه به والدُه عن حقيقة بعض الأعشاب وأماكن وجودها .

لم تذكر لنا المراجع المُتَيَسِّرة التي اعتمدنا عليها شيئاً عن شيوخ آخرين تلقّى عنهم الغساني الطبَّ وعلم الأعشاب ومفرداتِ الأدوية ، كما أننا لا نعرف شيئاً عن والده ولا عن تاريخ استقرار أسرة الغسَّاني بفاس ، مع أننا نعرف أنَّ أصلها من غرناطة ببلاد الأندلس ، وهي من الأُسر العريقة التي اشتهرت بالعلم والجاه ، ولنا أن نفترض أنَّ والد الغساني هو الذي نزح إلى فاس بصحبة أهله إثر سقوط مملكة غرناطة سنة 898 هـ /1492 م ، هذا ، وقد أخبرنا المقَّري أن قاسم الغساني أخذَ سائر العلوم الأخرى ـ غير الطبّ ـ من شيوخ ذكر منهم : الإمامَ المنجور[1] ، والقاضي الحُميدي[2] ، والأستاذ أبا مجبر[3] « وغيرَهم من أعْلام ذلك العصر » ، كما قال المقّري[4] .

سيرته وعلمه

لا نعرف من سيرة قاسم الغساني الشيْءَ الكثير ، فالمقَّري قد اقتصر على الإشادة ببيته ونسبه مُلَمِّحاً إلى جُوده ومحاسن أَخلاقه ، وقال عنه : إنه « تفرَّد ـ حفظه الله ـ بعلم الطبّ بالحضرتين ـ يقصد فاس ومراكش ـ وشارك في سائر العلوم »[5] ، أما أحمد بن القاضي فقد شهد له بالمشاركة في فنون من العلم وقال عنه : « إنه اختصَّ من بين الأطباء بسلامة الإعتقاد »[6] ، وهذه شهادة لها قيمتها في ذلك الزمان

---

(1) أحمد بن علي المنجور ، توفي عام 995 هـ /1587م (انظر فهرسة المنجور ودرة الحجال 1 : 156ـ 163) .

(2) عبد الواحد بن أحمد الحميدي ، توفي عام 1003 هـ / 1594م (انظر درة الحجال 3 : 142) .

(3) محمد بن أحمد بن (أبو أبو) مجبر المساري ، توفي عام 984 هـ /1576م . (انظر لقط الفرائد ، ضمن ألف سنة من الوفيات ، ص 314) .

(4) روضة الآس ، ص 217 .

(5) نفس المصدر السابق ص 217 .

(6) درة الحجال ، 3 : 289 .

تُنبِيء بما كان عليه الغسَّاني من استقامة وتبصُّر ودين .

وقد أشار كلّ من المقَّري وابن القاضي إلى سَعة اطّلاع قاسم الغسَّاني وولعَه بالأدب نثراً ونظماً ، وانفرد مُؤلِّف روضة الآس بإيراد مختاراتٍ من نثر الغسَّاني وشعره ، ومن بينها مُوشَّحات رقيقة تدلّ على البراعة وحسن الذوق .

مؤلفاته :

ترك الغسّاني ثلاثةَ مؤلفاتٍ كلّها في الطبّ والأعشاب وقد ذكرها المقَّري[1] ، وهي :

1 ـ الرَّوض المكنون في شرح أرجوزة ابن عزرون يشرح فيها أرجوزة الطبيب أبي موسى هارون بن اسحق بن عزرون (كان حياً عام 494 هـ/1100 م) وهي بمثابة تتميم لألفية ابن سينا في الطبّ ، وتوجد منها نُسَخ خطية في الخزانة الحسنية وفي الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط ، وفي الإسكوريال والمكتبة الوطنية بمدريد ، وفي المتحف البريطاني وجامعة ليدن[2] ، وقد وضع الغسَّاني هذا الشرح لخزانة وليّ العهد الأمير المأمون بن السلطان أحمد المنصور السعدي وأنجزه عام 990 هـ /1582 م .

2 ـ مُغْني الطبيب عن كتب أعداء الحبيب ، نقله الغسَّاني عن إحدى اللّغات الأوربية ، كما يُفهم من كلام المقَّري الذي قال : « وذلك أنَّه قدم على مقام أمير المؤمنين ... بعض أكابر الروم فأتحفه بهذا الكتاب مكتوباً بالقلم الأعجمي ،

---

(1) نفس المصدر 217 .

(2) انظر بروكلمان ، الذيل 1 : SI: 823 ودراسة للطبيب الفرنسي Renaud في مجلة Hespéris XII ، ص 209 .

وانظر : محمد العربي الخطابي ، فهارس الخزانة الملكية ، المجلَّد الثاني (الطب والصيدلة ...) الرباط 1402-1982 ، ص 118-119 .

فعرَّبه الشيخ [الغَسَّاني] ، وجعل له خُطبة ، وزاد فيه زيادات »[1] وقد يكون المقصود « بالقلم الأعجمي » اللغةَ الرومانصية التي كانت سائدةً في إسبانيا إذا لم تكن اللغة اللّاتينية نفسها ، ولا يمكن التأكّد من ذلك ما لم نطّلع على مخطوطةِ كتاب « مُغني الطبيب » وهو من آثار الغَسَّاني المفقودة ـ حسب علمنا ـ وقد يكون هذا الكتاب مما أهداه فليب الثاني ، ملك إسبانيا ، لأحمد المنصور ، وكانت بينهما سفارات وتبادل الهدايا .

3 ـ حديقة الأَزهار في شّرح ماهية العُشب والعَقّار[2] ، وهذا هو الإسم الذي ذكره المؤلف في خُطبة كتابه ، وقد أنجزه في شهر محرم عام 994 هـ / 1585م وألّفه برسم خزانة السلطان أحمد المنصور الملقّب بالذهبي (986–1012 هـ / 1578–1604 م) ، وهو أعظم ملكٍ أنجبته الدولة السَّعدية ، وكان شهماً عالماً أديباً ، وكان من الفاتحين ، وهو الذي صدّ الزحف النصراني البرتغالي عن المغرب ، واشتهر بمساهمته الحاسمة في الموقعة المعروفة بموقعة الملوك الثلاثة أو معركة « وادي المخازن » ـ كما يُسمّيها أهل المغرب ـ اندحر فيها جيش البرتغال وقتِل ملكُها ضون سباستيان وانحسر على إثرها المدُّ الإستعماري عن بلاد المغرب إلى حين ، وكان ذلك عام 986 هـ / 1578 م .

ذكر المقّري كتابَ حديقة الأزهار فقال : « كتاب عجيبٌ في بابه لم يُؤلّف مثلُه ، يذكر سائرَ الأعشاب والعقاقير بما سُمِّيت به في الكتب ، ثم يذكر اسمَه بلسان عامّة الوقت ، ثم يذكر خواصَّها على وجه عجيب »[3] .

---

(1) روضة الآس ، ص 217 . وانظر أيضاً بحثاً لمحمد المنوني في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلدان 11و12 ، ص 329–358 .

(2) سَمّاه المقّري في روضة الآس « حديقة الأزهار في الأعشاب والعقار » (ص 217) ، وفي بروكلمان : « حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقّار » (الذيل 2 : 717) ، وانظر أيضاً مجلة : Hespéris XVIII ، ص 97 .

(3) نفس المصدر السابق ، ص 217 .

والحقيقة أن المقَّري لم يبالغ فيما قاله ، بل إنه قَصَرَ عن إدراك وجه الجدَّة والطَّرافة في هذا الكتاب ، وهو ما سنُبينه بعد حين .

رتَّب الغسَّاني كتابه على الحروف الأبجدية ، باصطلاح المغاربة ، مبتدئاً بحرف الألف ومنتهياً بالشّين ، يذكر الإسم العلمي للمادّة الطّبّية المفردة ثم يشرح ماهيتها ويصف شكلها وأَجزاءها وما قد يكون لها من زَهر وثمر ، وكثيراً ما يذكر أَسماءها المتعدّدة والبيئة التي تَنْبت فيها ، إن كانت من الأعشاب ، وهو يذكر اسمَها الدَّارج على لسان العامة في المغرب بالعربية أو باللسان الأمازيغي ، وبعد أن يوضِّح ماهية المادّة النباتية أو الحيوانية أو المعدنية ينتقل إلى بيان طبيعتها ، وأخيراً يذكر خواصَّها ومنافعها الطّبّية أو مضارَّها ـ إن اقتضى الحال ـ من غير دخولٍ في التفاصيل المتعلِّقة بالمقادير وطريقة التَّحضير إلا نادراً ، ثم يختم بذكر بَدلها إذا تعذَّر وجودها .

وقد تناول الغَسّاني في كتابه هذا بالشرح نحو 380 مادّة مفردة ، معظمها من جِنس النبات (وعدد المفردات الحيوانية والمعدنية سبع) .

أما الميزة التي انفرد بها الكتاب فتتجلَّى في اصطناع المؤلف منهجاً لتصنيف النَّبات تصنيفاً علمياً ـ وهو ما يسمّى اليوم ، بالنّظام التَّصنيفي La systématique ذلك أَنه كثيراً ما يعمد إلى تعيين جِنس العشبة ونوعها ، ويطلق لفظ « الجنس –Genus بالإنجليزية أو genre بالفرنسية ـ على ما يُطلِق عليه علماءُ النبات المحدثون « الفصيلة » والحقيقة أنّ منطق اللغة العربية يقتضي أن يكون الجنس أَعَمَّ من الفصيلة .

فهو ـ مثلاً ـ يُطلق على ما يسمّى اليومَ في اصطلاح علماء النبات « بالفصيلة القَرعية » (Cururbitaceae) ، **جنسَ اليقطين** ويَدخل فيه القَرعُ والدُّباء والقِثّاء والخِيار والبطّيخ والحَنظل وما إليها ، ومما لا شكَّ فيه أن اليقطينَ أَعَمُّ من القَرع ، فهو كل نباتٍ يمتد على الأرض ولا ساق له ، فكان المنطق يفرض على واضعي المصطلحات منَ المعاصرين أن ينعتوا هذه الفصيلة باليَقطينية لا القَرعية ، والعسَّاني يُطلق على الفصيلة الزّنبقية liliaceae : جنسَ البَصل ، ومنه الثّوم

بأنواعه والبَصل البستاني والسوسن والصَّبر والعُنصل إلى غير ذلك . والفصيلة الخيمية Unbelliferae سَمَّاها الغَسَّاني : ذواتِ الجُمَم ، ومنها الكَرويا والكَرَفس والكُزبُرة والكَمّون والنافِع وما إلى ذلك .

وهكذا نجد الغسّاني يقتدي ببعضٍ من سبقه من علماء النبات العرب الذين اهتدوْا إلى ابتكار أسماء علمية لبعض الفصائل والأجناس أهملها المتأخرون من واضعي المصطلحات العلمية ، من ذلك مثلاً أن هؤلاء قد اقتصروا ، أحياناً ، على تعريب المصطلح اللاتيني دون إيجاد مقابلٍ عربيٍّ له أو الرجوع إلى المعرَّب القديم ، ونذكر على سبيل المثال : الفصيلة المعروفة باسمها اللّاتيني Euphorbiaceae فقد عَرَّبوها فقالوا : الفصيلة الفربيونية ، وسمّاها الغسّاني وبعضُ من سبقه جنسَ **التَّيُّوع أو اليَتوع** ، وهو كلّ نبات له لَبَنٌ يسيل إذا قُطِع ، والتّيّوع ـ كما قيل ـ لفظٌ سرياني مُعَرَّب ، فلا داعي إلى تغييره بلفظ لاتيني .

والغسّاني قد سار على نهج مؤلِّفٍ عربيّ آخر عاش في القرن السادس الهجري استعمل العديدَ من المصطلحات لبيان الفصيلة أو الجِنْس مستلهماً في الغالب شَكْل الأوراق أو خاصّيةً مميِّزة في النّبات على طريق المشابهة والمشاكلة ، من ذلك هذه التّسميات : الكُفوف ، والسيوف ، والمِتْرَسات ، والهَدَبات (من الهَدَب[1] والجَمْع أهداب) ، والأحباق ، والصعاتر ، والبَقْل المستأنف ، واللّبلاب ، والدّيس ...

نعم إن الغسّاني لم يتوصَّل إلى تصنيف يعتمد الخصائص التناسلية للنبات كما فعل علماءُ الغَرب المتأخرون ومنهم الطبيب وعالم النبات السويدي كارل لينيه[2] ،

---

(1) الهَدَبُ : كلُّ ورق ليس له عَرْض كورق السَّرْو ، أو هو الزّغب الذي يقوم مقام الورق .

(2) Carl Von Linné

طبيب وعالم نَباتي سويدي (1707–1778م) وَضَعَ نظاماً لتصنيف النبات على أساس خصائص المِدَقّات والأَسْدية (أعضاء الذكورة والأنوثة) ، وهو نظام اصطلاحي مَحْض ، إلا أنه لقي نجاحاً كبيراً . خَلّف لينيه عِدة مؤلفات منها كتابه « أنواع الأعشاب » (انظر :

(Grand Larousse encyclopédique, Tome 12).

وما كانَ للغسّاني أن يُدرك ذلك بدون معاونة المِجهر الذي لم يكن معروفاً في عصره .

ومع ذلك فقد لاحظ الغساني ما بين الأعشاب من قرابة طبيعية فخطا بعلم النَّبات خطوة إلى الأمام بفضل دقَّة ملاحظته وتمكُّنه من علمه ، وحسن انتفاعه بالمؤلفات العربية القديمة ككتاب النبات لأبي حنيفة الدّينوري ، وكتاب عمدة الطبيب في معرفة النبات الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

وقد لاحظ بعض الدارسين الغربيين أصالة هذا العالم في معالجته لأفراد المملكة النَّباتية ، ومن هؤلاء الطبيب والمستشرق الفرنسي هنري رونو (H.P.J. Renaud) الذي خصَّه ببحث قال فيه :

« يُعَدُّ الغسَّاني ذهناً متميزاً إذا قيس بعصره وبيئته ، والحكم على آثاره لا يتأتَّى دون مقارنتها بالعديد من مصنّفات المادة الطبية لمؤلفين عرب آخرين . نعم ، إنه لم يصل إلى حدٍّ يجعله يتبيَّن بوضوحٍ تام ما للزهرة من أَهمية راجحة ، ولا سيما أَعضاء الإخصاب التي تَكْمن في أَحشائها ، حتى يتمكَّن من وضع قاعدة صحيحة لنظام التَّصنيف النَّباتي ، فهو يُطلق اسم الخيوط على المِدَّقات والأَسدية[1] ويخلط بينهما ، إلا أنه قد استخلص بوضوح فكرةَ التَّسلسل في خَصائص النبات ـ من جهة ـ كما أدرك ـ من جهة أخرى ـ مفهومَ القرابة القائمة بينَ أنواع النبات بحيث يَضمُّها تحت تسمية واحدة بواسطة تلك الجموع الطريفة التي اصطنعها »[2] .

أما المستشرق الإيطالي ألدو ميلي Aldo Mieli فإنه نقل النصّ الذي عَرّبناه عن رونو وصدّره بقوله :

« امتاز أبو القاسم الغَسّاني الوزير بتصنيفه للنَّبات ، فجاء كتابه فريداً من نوعه

---

(1) المِدَقَّات ، ج مِدَقة أي عضو الأنوثة في الزهرة Pistil ، والأسدية ، ج سداة : عضو الذكورة في النبات (stamen بالإنجليزية و étamine بالفرنسية) .

(2) Essai de classification botanique dans l'oeuvre d'un Médecin marocain du XVI siècle. (Mémorial Henri Basset, Paris 1928, II, 197/206.

بين المصنّفات العربية ، وهو قد انتفع غايةَ الإنتفاع بعمل سَلفه العَشّاب المالقي[1] ، حينما أُلِّف كتابَه « حديقة الأزهار » وأتَمّه عام 1586م ، إلا أنه في إمكاننا أن نتساءل عَمّا إذا كان هذا المؤلِّف العربي قد تأثّر بأندريا سيسالبينو Andrea Cesalpino الذي أَلّف كتابَه : « الأعشاب » De plantis عام 1583 ، عَلَى أَنَّ هذا الإحتمال ضعيف »[2] .

وتعقيباً على هذا القول ينبغي أن نبيّن :

أولاً : أن الغسّاني ـ كما سيظهر من قراءة كتابه ـ لم يرجع إلى إبن البيطار وحْدَه ، بل إنه لم يُعَوّل عليه إلا قليلاً ، على أَنَّ مفرداتِ ابن البيطار في جملتها عبارة عن نقول لأقوال سابقيه كإبن وافد وابن جلجل والغافقي والشريف الإدريسي وأبي العباس ابن الرومية النباتي فضلاً عن ديوسقوريديس وجالينوس وأبي حنيفة الدينوري ، كما أَوضح ابن البيطار نفسه في مقدّمة مفرداته ، وهذا لا يعني أنه لم يعتمد على معرفته هو نفسه لِكثير من الأعشاب التي ذكرها في كتابه ، ولكّن النقلَ عنده أَظهر ، ولا تكاد مادّة من موادِّ كتابه تخلو من ذِكْر المصَادر التي نَقل منها .

أَمّا الغساني فإنه عَوّل كثيراً على مرجعٍ بالغ القيمة في علم النبات ـ كما سنبين فيما بعد ـ فضلاً عن معرفته بكثير من الأعشاب التي وصفها بَعد أن وقف عليها بنفسه في المغرب ، فإذا كانت العُشبة من غرائب نبات الأقطار البعيدة فإنه يكتفي بنقل أقوالِ غيرِه على ما قد يكون فيها من تعارض ، ولذلك يكثر عنده ورود مثلِ هذه العبارات : قيل ... اختَلَف الأطباء في ماهية كذا ، فمنهم من قال كذا ، ومنهم من قال كذا ، وهو يرجِّح القولَ الذي يراه سديداً .

ثانياً ـ إن أَلدو ميلي قد تكلَّف التساؤل عن حقيقةِ تأثُّرِ الغساني بسيسالبينو

---

(1) يقصد عبدالله ابن البَيْطار ، ضياء الدين (ت 646 هـ / 1248م) .

(2) Aldo Mieli; La Science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale: p. 214 Leiden-Brill-1966.

الإيطالي ، إلا أنه سرعان ما استبعد هذا الإحتمال ، وما كان له أن يفعل غيرَ ذلك ، فالغسّاني قد انتهى من تأليفِ كتابه في العشرين من محرم عام 994 هـ /1585م أي بعد سنتين من صدور كتاب : De plantis في إيطاليا ، وتأليفُ كتابٍ في أهمية « حديقة الأزهار » عملٌ لا يتمّ بين عشية وضُحاها ، فهو لا بدّ من أن يكون ثمرةَ جهد سنين من العمل والبحث والتنقيح والتهذيب ، هذا من ناحية الشّكل ، أما من جهة الموضوع فإن المقارنة بين التّأليفين من حيث المَنهجُ والأسلوب والمادّة هي وحدها التي يمكن أو تُثبت أن تنفيَ تأثير هذا المؤلِّف في ذاك .

وأَول ما يظهر لنا من ذلك هو أَن الغسّاني لم يدرس الأعشاب على أساس أَنها مستقِلّة عن علم الطبّ ، أما سيسالبينو فإنه دَرس الأعشاب في حدّ ذاتها ، لا كفرعٍ من فروع الطبّ والصيدلة . وهذا ما فعله قبله بقرون المؤلف الأندلسي لكتاب « عمدة الطبيب في معرفة النبات » الذي سنتعـرض له فيما بعد ، وهو بدون شك أول عالم صنف النبات تصنيفاً علمياً واهتم بجغرافية الأعشاب .

ثم إن النباتي الإيطالي قد نهج طريقةَ التحليل التشكُّلي (Morphologique) لأعضاء النبات فتوصَّلَ إلى تعيين مجموعةٍ من الفصائل المطابقة لتنوّع هذه الأعضاء ، وهو قد نظر في الثّمار وما تنطوي عليه من بزور ومن ميوعة أو جفاف ، وفَصَل ما بين النّبات المُثْمِر والذي لا ثمر له ولا بزر ، كما اتَّخذ من مدة عُمر النَّبات قاعدةً أساسية لنظامه التصنيفي فوقع في أخطاء جعلته يربط بشكل تعَسُّفِيٍّ بين مجموعاتٍ لا تقوم بينها وَحْدة ، هذا فضلاً عن غموض المصطلحات التي وضعها .

أما الغسّاني فإنه ، وإن كان قد تبيَّن الخصائص التشكُّلية للأعشاب وعيّن على أساس ذلك طائفة من الأجناس ، فإنه لم يلتفت إلى أَعضاء الإخصاب لتعذُّر ذلك عليه ، إذ من المعلوم أن المجهر هو الذي أتاح تشريح النبات ودراسة دقائقه .

وقد امتاز الغسّاني ، فضلاً عن ذلك ، بالوضوح في الوَصف ، والإقتصاد في التعبير ، وسلك مسلكاً جعله يهتمّ بالزهور والثّمار والبزور والجذور والأوراق ،

ويلاحظ وجود نباتاتٍ طفيلية ، ولا يخوض فيما لم يشاهده ولم يعرفه ، ثم إنه قد اهتمّ بالبيئة الطبيعية التي تعيش فيها بعض النباتات ، وهو ما يُطلِق عليه علماء النبات المعاصرون : «Biotop».

ثالثاً ـ إن الغسّاني لم يكن هو السابق إلى محاولة تَصنيف النّبات من بين العُلماء العَرب فهو إنما عُنِي باقتفاء منهجٍ سار عليه غيره ، وأُستاذه في ذلك هو ابن عبدون كما قلنا . فمن هو هذا العالم الذي أَشار إليه الغسّاني وذكره باسمه إحدى عشرة مَرّة في كتابه « حديقة الأزهار » كما نقل من كلَامه عباراتٍ بنصّها من غير أن يذكر لنا اسمَ الكتاب الذي رجع إليه وأفادَ منه كثيراً .

إنّ ابن عبدون هذا هو ، بالتأكيد ، مؤلف كتاب « عمدة الطبيب في معرفة النّبات لكلّ لبيب » الذي كثيراً ما قيل عنه إنه مجهول المؤلف[1] ونسبه بعضهم ـ خطأً ـ إلى الطبيب البغدادي ابنِ بطلان النّصراني المعروف بيوانيس (توفي عام 456 هـ /1066 م)[2] حتى إنّ النّسخةَ المحفوظة بالخِزانة العامّة للكتب والوثائق في الرّباط كَتَب ناسخُها في صَدر الورقة الأولى منها أنّ مؤلفَ كتاب العمدة هو المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان وهذا ما نجده أيضاً في النسخة المحفوظة بالأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد ، وقد وقع خير الدين الزركلي – رحمه الله – في الوَهم نفسه حينما نسب هذا الكتاب للطبيب البغدادي[3] مع أن القفطي وابن أبي أصيبعة لم يذكراه من بَيْن مؤلفات ابنِ بطلان .

---

(1) نشر المستشرق الأسباني أسين بلاثيوس معجماً للألفاظ الرومانصية الوَاردة في كتاب عمدة الطبيب وجعل له مقدمة ونسب هذا الكتاب إلى مؤلفٍ مجهول . انظر Palacios, Asin. - Glosario de voces romances registrados por un botánico anonimo hispano-musulman (siglos XI-XII), Madrid, 1945.

(2) طبقات الأطباء 1 : 43 – 241 .

(3) الأعلام ، 7 : 191 .

إن الذي يَقرأ الصفحاتِ الأولى من كتاب « عُمدة الطبيب » لا يلبث أن يَتَبَيّن أنَّ مؤلِّفه أندلسيٌّ متأصِّل يعرف بلاده وبيئتَها الطّبيعية معرفَة خبيرٍ جَوّال ، فهو ما يفتأُ يؤكّد أنَّه رأى هذه العشبة أو تلك في قرية من قرى اشبيلية أو في ناحية من نواحي غرناطة أو مالقة أو المرية أو طليطلة أو الجزيرة الخضراء ـ ويورد المؤلّف مئاتِ الألفاظ باللغة الرومانصية ـ لغة نصارى الأندلس ـ ويشرح معناها ، وأهمّ من هذا كلّه أنه ينقل ما سمعه ، مشافهةً ، من أبي عبدالله ابن بصّال الطليطلي مؤلِّف كتاب الفلاحة المشهور[1] ، كما يَروي بالسند المباشر عن أبي الحسن علي الأنصاري الطليطلي المشهور بابن اللّونْقه[2] فيقول عنه ـ بكثير من الإحترام ـ « شيخنا » أو « شيخي الذي تَعلّمت عليه الصّنْعة » ، ويذكر المؤلّف بعض ما شاهده في بَساتين السّلطان بإشبيلية ويُشير إلى بذور جُلِبت إلى الأندلس من المَشرق أو من صقلية أو من بلاد العُدوة ـ يعني المغرب الأقصى ـ ويُفهم من كلامه أنه زار هذا القُطر حيث شاهد بعضَ الأعشاب المَحلّية . كلّ هذا لا يدع مجالاً للشكّ في أن ابنَ عبدون مؤلّفَ كتاب « عمدة الطبيب » أندلسيُّ الأصل والنَّشْأة والمُقام .

هذا وقد قمتُ بمقابلة ما نقله الغسّاني عن ابن عبدون مع ما جاء في مخطوطة كتاب « عُمدة الطبيب » في أَحدَ عشر موضعاً حيث تناول المؤلفان بالشّرح المفردات التالية : **هَرنْوَه** ، **زنجبيل** ، **يَنبوت** ، **الكُندر** ، **عرطنيثا** ، **قيصوم** ، **قَتاد** ، **قَرنفل** ، **تافسيا** ، **سُمّاق** ، **خولنجان** ، فتبيّن لي بصورة قاطعة أن ما نقله الغسّاني منسوباً لابنِ عبدون واردٌ بنصّه في « عمدة الطبيب » بما في ذلك مادّة **قتاد** حيث يقول الغسّاني في الفقرة الأخيرة من تفسير ماهية هذه العشبة : « قال ابن عبدون :

---

(1) ابن بصّال ، كتاب الفلاحة ، نشره وترجمه إلى الإسبانية محمد عزيمان ، وخوسي م . بيكروسا ـ تطوان 1955 .

(2) انظر ترجمة ابن اللّونقة في كتاب « التكملة لكتاب الصّلة » لابن الآبار ، 2 : 662 ـ طبعة كوديرا ، مدريد 1887 . وفي « المستدرك على هذه الطبعة الصادر في : Miscelania de estudios y textos arabes: بعناية Palencia و Alarcon ، ص 200 ، مدريد 1915 .

ولقد رأيته بمراكش كثيراً ووقفت عليه ، أرانيه إياه أعرابي هناك ، وهو من نبات أرضِ العرب » .

وقد ذكر القاضي المرحوم العباس بن إبرهيم في ترجمة ابن عبدون[1] أنه لم يجد في كتاب « عمدة الطبيب » ذكراً لهذه الفقرة التي نقلها الغساني مع أنها موجودة فيه ينصّها ، وهو لم يهتد إليها لسبب واضح وهو أنّ صاحب كتاب « العمدة) ذكر **القَتاد** ثلاثَ مَرّاتٍ في حَرف القافِ في الصفحات 266 – 267 – 278 من مخطوطة الخزانة العامة بالرباط التي كانت في ملك العباس بن إبرهيم نفسه قبل أن تقتنيها الخزانة ، والفقرة التي نقلها الغسّاني واقعة في ص 267 في مادة **قَتاد** عند ذكرها للمرة الثانية .

فمن يكون ابن عبدون هذا الذي عَوّل عليه الغسّاني كثيراً في تفسير ماهية النّبات وتعيين أَجناسه وأنواعه ومنابته ؟

وكيف نفسّر خُلُوَّ كتبِ التراجم – ومنها تكملة ابن الأبّار – من ذكر أخباره مع أنه أَلّف كتاباً جليلاً لا نظير له في بابه بحيث يمكن عدّه معجماً لغوياً متعددَ اللغات ومصنّفاً جامعاً في النبات عموماً – الطبّي وغيره – يفسّر ماهيته ويُعيّن بيئته وأماكنَ وجوده ويبيِّن ما جُلِب من البذور إلى الأندلس واستُنْبِت في حقولها وبساتينها ، ومن هذه البذور ما جَرّبه بنفسه . وهو يتتبع أقوالَ الرواةِ وعلماء اللغة والطبّ ويُرجّح ما يثبت عنده بالخبرة والمشاهدة في أغلب الأحيان ؟

من الأندلسيين الذين عُرفوا بهذا الإسم الطبيب الرياضي محمد بن عبدون الجبلي (كان حياً في خلافة هشام المؤيد بالله الأموي (366–404 هـ /976–1009 م)[2] ، إلا أن هذا لا يمكن أن يكون هو مؤلف كتاب « عمدة الطبيب »

---

(1) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، 1 : 195–194 .

(2) ترجمته في : « طبقات الأمم » للقاضي صاعد الأندلسي ، ص 124–125 ، وفي طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة : 3 : 74 .

لكونه متقدّماً في الزمن عن أبي الحسن ابن اللّونقة شيخ صاحبنا ابن عبدون ، ولكون هذا الأخير ينقل بعض أقواله في الأدوية المفردة .

وينبغي أن نستبعد كذلك الوزيرَ الكاتب أبا محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري (توفي عام 527 هـ /1132 م)[1] ، وهو من الأعلام الذين زاروا المغرب حيث كتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، واشتهر ببراعته في اللّغة والشعر ، وهو مؤلف كتاب « في نصرة أبي عبيد » وصاحب القصيدة الرائية المشهورة :

الدَّهـر يُفجِـع بعد العين بالأثَـــــرِ * فما البكـــاء على الأشباح والصُّورِ

إلا أن أبا محمد هذا ـ الذي كان معاصراً لصاحب « عمدة الطبيب » ـ لم يرد له ذكرٌ بين المشتغلين بعلمَيْ الفلاحة والنّبات ، وترجمته معروفة ومذكورة في العديد من الكتب ، ولو كان له كتاب بهذه الصفة لما غفل عن ذكره أصحاب التَّراجم .

يبقى أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدون الأندلسي الإشبيلي مؤلف رسالة في الحِسبة نشرها ليفي بروفنصال من ضمن رسالتين أخريين[2] ، ولم نجد له ذكراً ، إلى الآن ، في كتب التراجم والتّاريخ . وقد أكّد بروفنصال نفسه أن اسم مؤلف هذه الرسالة ـ حسب مخطوطة أخرى عثر عليها في سلا ـ هو محمد بن عبدالله بن عبدون[3] .

---

(1) ترجمته في كتاب « الغنية » للقاضي عياض اليحصبي ، تحقيق محمد عبد الكريم ، ص 234ـ235 .

(2) ثلاث رسائل أندلسية في الحِسبة ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة 1955 .

(3) انظر في هذا بحثَ صديقنا الأستاذ عبد الرحمن الفاسي عن الحسبة في مجلة « المناهل » العدد 20 ، ص 48 ومقاله الآخر في نفس المجلة بعنوان : « من هو الكرسيفي مؤلف الرسالة في الحسبة التطبيقية » ، مجلة « المناهل » العدد 24 ، ص 94 و101 ، وانظر بحث ليفي بروفنصال عن الحياة الحضرية والهيئات في إشبيلية في بداية القرن الثاني عشر ، المجلة الاسيوية ، العدد 224 ، ص 185 .

إن الشَّيْء الوحيد الذي يمكننا أن نقوله على سبيل القطع هو أن مؤلف كتاب « عمدة الطبيب في معرفة النبات » أندلسي كان مقيماً باشبيلية وعاش في القرنين السادس والخامس من الهجرة ، وأن الغَسَّاني نقل عنه وجعله في طليعة مصادره في مادَّة التعريف بالنَّبات ، وسَمّاه ابن عبدون في أَحد عشر موضعاً من غير أن يذكر اسم الكتاب ، هذا وقد اتَّضح لي من مقابلة « حديقة الأزهار » « بعمدة الطبيب » أنَّ الغسَّاني نقل معلومات أخرى من هذا الكتاب من غير أن يُشير إلى المرجع . والمؤكَّد كذلك أن « عمدة الطبيب في معرفة النبات » هو أول مؤلَّف عربي وصل إلينا عُني فيه مؤلفه بتصنيف الأعشاب والنباتات تصنيفاً منهجياً مع تعيين البيئة الطبيعية التي ينمو فيها ، وكان مؤلفه يزاول الغراسة بنفسه ويُعني بجلب البذور ومشاهدة أعيان النبات في أماكن وجودها[1] . وبالرغم مما يوحي به اسم الكتاب ، فإنه مؤلَّف في علم النبات بالدرجة الأولى من حيث إنَّه لا يتعرض للخواص الطبية إلا فيما قلَّ ونَدُر .

وفاة الغسَّاني :

لا تذكر المراجع المتيسرة تاريخ وفاة أبي القاسم الغَسَّاني ، وكل ما نعرفه هو أَنه كان ما يزال حياً حينما أَلَّف أحمد المقَّري كتابَه « روضة الآس » وكان ذلك عام 1012 هـ / 1603 م ، فقد ذكره من بين الأحياء وأورد قصيدة له يمدح بها السلطان أحمد المنصور بمناسبة تدشين سدٍّ « بوطوبة » في فاس سنة 1009 هـ / 1600 م ، ويشير الغسَّاني نفسه إلى هذا التاريخ في بيت من قصيدته تلك حينما يقول ، مشيراً إلى السدّ المذكور :

في عام تسعٍ وألف تَـمَّ سائـــــره * في مدَّةٍ نَزُرت قريبـةِ الأَجـل[2]

---

(1) انظر المقدمة التي كتبها أسين بلاثيوس للمعجم الذي سبقت الإشارة إليه .

(2) روضة الآس ، ص 218 .

أما صاحب « درة الحجال » فلم يذكر تاريخ وفاته .

أما محمد بن الطيب القادري فقد ذكر الغساني في خاتمة كتابه من بين الأعلام الذين لم يقف على تعيين تاريخ وفاتهم ، واكتفى بالقول إنه كان من أطبّاء السلطان أحمد المنصور ومن خاصته[1] .

وفي مقال للأستاذ محمد المنوني حول ظاهرة التعريب في المغرب قال : إن تاريخ وفاة الغساني هو عام 1019 هـ / 1611 م[2] معتمداً في ذلك على ما جاء في كتاب « الإتقانُ والإحكام في شرح تحفة الحكام » لمحمد بن أحمد ميارة[3] ، ومثل ذلك جاء في كتاب « الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين » للدكتور محمد حجّي[4] ، وفي « الأعلام » لخير الدين الزركلي[5] وقد اكتفي بروكلمان ، في المصدر الذي سبق ذكره ، بتعيين تاريخ ميلاد أبي القاسم الغساني .

نسخ الكتاب :

اعتمدنا في تحقيق كتاب « حديقة الأزهار » على أربع نسخ :

1 ـ نسخة الخزانة الحسنية رقم 2499/ طبّ ، وهي نسخة كاملة لا ينقصها إلا خطبة الكتاب محتوية على 86 ورقة في كلّ ورقة 22 سطراً ، ومقاسها 20 × 14 سم ، وهي مكتوبة بخطٍّ مغربي معتاد ، والتصحيف فيها نادر ، نُسخت في 26 ربيع الثاني عام 1238 هـ . وقد رمزنا لها بحرف أ .

---

(1) نشر المثاني 2 : 404 .

(2) انظر صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلدان الحادي عشر والثاني عشر ، 1963ـ1964 ،

(3) طبعة فاس 1299 هـ ، ج 1 ، ص 442 .

(4) ج 2 ، ص 381 .

(5) الأعلام ، 5 : 182 .

2 ـ نسخة الخزانة الحسنية رقم 7336/ طبّ ، مبتورة الآخر تنقصها نحو ثماني ورقات وست وثلاثين مادّة ، تنتهي عند الكلام على مادة « خيار شنبر » ، محتوية على 82 ورقة في كل ورقة 22 سطراً ، ومقاسها 21 × 15,5 سم ، وهي مكتوبة بخط مغربي معتاد بمداد أسود ، وأسماء المواد بالأحمر ، وقد رمزنا لها بحرف ب .

3 ـ نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم د 1684 ، وهي قطعة من الكتاب تنتهي عند الكلام على مادة « صَبِر » في حرف الصاد ، ينقصها 175 مادّة من مجموع 384 التي يشتمل عليها الكتاب ، وهي محتوية على 62 ورقة ، في كلّ ورقة 26 سطراً ومقاسها 23 × 18 سم ، مكتوبة بخط مغربي حسن بمداد أسود ، وهي كثيرة التَّصحيف ، وقد رمزنا لها بحرف ج .

4 ـ نسخة الخزانة الحسنية رقم 1063 / طبّ ، وهي عبارة عن اختصار للكتاب ، محتوية على 110 ورقات في كلّ ورقة 19 سطراً ، ومقاسها 22 × 17 سم ، مكتوبة بخط رديء بمداد أسود وأسماء المواد بالأحمر وقد رمزنا لها بحرف د .

منهج التحقيق :

عمدت إلى مقابلة النسخ المتوافرة من الكتاب مشيراً في ذيل الصفحات إلى ما أجده في كلّ منها من ألفاظ وعبارات ساقطة أو ثابتة أو مصحَّفة ، وأنبِّه إلى ما يبدو أنه الصَّواب معتمداً في ذلك على كتب المفردات والمعاجم العلمية واللّغوية ، وكثيراً ما أشرح الألفاظ التي أرى أنها في حاجة إلى شرح أو بيان ، باستثناء المصطلحات الطبية والصيدلية التي وضعتُ لها في آخر الكتاب وضمن فهارسه ، معجماً .

وقد رأيت من الفائدة أن أضع لكلِّ مفردة من المفردات النباتية والحيوانية والمعدنية الاسم العلمي اللّاتيني الذي يقابلها واسمها الشائع في الفرنسية والإنجليزية

مع الفصيلة التي تنتمي إليها ، هذا فضلاً عن صور العديد من الأعشاب ، وكل ذلك بنية التيسير وتوفير المشقة على القاريء .

وألحقت بالكتاب ـ زيادة علي المعجم الذي أشرت إليه ـ الفهارس التي تقتضيها طبيعة التحقيق .

وقد بذلت في سبيل إخراج هذا المصنَّف جهداً أرجو ثوابَه عندالله مع اعترافي بأني لست من أهل المعرفة المتخصِّصة في علم النَّبات ، وهذا يشفع لي ما قد أكون وقعت فيه من خَطَإٍ في الفهم أو قصور في النَّظر وإنما حَرَّكني هاجس خدمة اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، وللمتخصصين في علم النبات والطبّ واسعُ النظر في تقويم هفواتي وتصويب أَخطائي مع أَنني لم أتجاوز الحدَّ الذي تقف عنده معرفتي الضعيفة بتراث العرب العلمي ، وقدرتي المتواضعة على فهمه في ضوء العلوم العصرية العامة .

ولا بدّ لي من أن أشكر لزوجتي السيدة شمس الضّحى أطاع الله ما قدمته لي من معونةٍ ثمينة في سبيل إخراج هذا الكتاب ، فقد رسمت بريشتها الأنيقة لوحات الأعشاب الملونة كما شَجَّعتني بصبرها على المُضّي في العمل قدماً ، حفظها الله .

وبعد ، فإني على يقين من أنَّ كتاب « حديقة الأزهار » ـ هذا الذي أُقدِّمه ـ سيكون ذا فائدة في خدمة اللغة العربية ـ أولاً ـ وتاريخ العلم الإسلامي ـ ثانياً ـ وكفى بذلك جزاءً لمؤلّفه ، رحمه الله ، واعترافاً ببعْض فضله ، والحمد لله رب العالمين .

الرباط : 23 ذي الحجة 1404

19 سبتمبر 1984

محمَّد العَربي الخَطَّابي